تحرير المعرفة من النظرة الاستعمارية ونظرياته المهاجرة

بقلم سلوى لوستر بولبينة

ترجمة حسيبة بن موسى ماحي

من لا وطن له، يحدثُ أن تصبح الكتابة المكان الذي يسكنه[1].

(أ)

لقد تحدثنا كثيرا عن الترجمة بوصفها وسيلة لفهم طرق نشر المعرفة وتحويلها. أعتقد من جهتي أنّ الترحال هو نموذج يستدعي أيضا الاهتمام من أجل التفكير في تحرير المعرفة من النظرة الاستعمارية. هذا هو النموذج الذي أودّ عرضه انطلاقاً من جملة إدوارد سعيد الرائعة « النظريات المهاجرة». يخلط الكثيرون إلى حد الآن بين التحرر من النظرة الاستعمارية والتلقي مفضّلين مثلا جعل "فانون" قارئاً لـ "سارتر" بدلا من جعل "سارتر" قارئاً لـ "فانون". وهكذا تبدو قراءة "سارتر" من طرف "فانون" ضرورية، أمّا قراءة "فانون" من طرف "سارتر" فكأنّها غير أساسية. وهكذا وباسم هدف تحرير المعرفة من النظرة الاستعمارية النبيل، تحدث المشاركة نفسها ونجد التسلسل الهرمي نفسه، وأخيرا نقع في فخ الاستعمارية. فعندما يكون "سارتر" قارئاً لـ "هيغل" نعتبره قبل كلّ شيء كاتبا حتى لو كان جليا أنّه مجرد قارئ.

إنّما الحديث عن تحرير المعرفة من النظرة الاستعمارية هو تساؤل عن انتقال المعلومات وتبادل الأفكار والاستفسار عمّا تعلمناه وعمّا نتعلمه وعمّا يمكن أن نتعلمه من الآخر أيّا كان هذا الأخير ومهما كان المكان الذي ينتمي إليه. يشكّل انزياح المركز الذي يُحدثه هذا الموقف ثورة "كوبرنيكية" جديدة. يجب على الأوربيين في هذه الثورة أن يدركوا ما قدمه الآخرون غير الأوروبيين لهم. وهذا ما يجب تسميته من الآن فصاعدا « المناطقية». لا يجب عليهم أن يعوا فقط كيف نشروا معلوماتهم المختلفة والمتعددة عبر العالم في ظل عولمة لم تعلن عن نفسها بعد بل وكيف أدرجوا في طرق قيامهم بالأشياء وأساليب تفكيرهم الأفكار والأشياء التي أتتهم من مكان آخر. لهذا فإنّ الترحال ضروري لأنّه يحرك المسافات والحدود بين الأوروبيين وغير الأوروبيين، بيد أنّه لا يوجد ترحال دون اغتراب ودون هجرة.

لهذا السبب رأى إدوارد سعيد نفسه في "كونراد". لكن في حين أنّ "كونراد" يتنقل داخل قارة واحدة يتنقل سعيد بين القارات مما يجعل كلّ واحد منهما في وضعية مختلفة عن الآخر. ولهذا يجب وضع الترحال الذي نحن بصدد التحدث عنه في سياق تحرك الحدود ونظرية الانجراف القاري. يدعونا هذا أو بالأحرى يفرض علينا ليس فقط تحديد ما ننتظره من حقل معرفي معيّن كالأنثروبولوجيا مثلا، ولكن أيضا تحديد كيف نتصور المعرفة بحد ذاتها. وفي هذا السياق يصبح تحرير المعرفة من النظرة الاستعمارية ثورة إبستيمولوجية. يجب في الواقع على سُلّم المرجعيات المعرفية أن يتماشى مع تصنيف المعرفة التي ترفع من قدر المهندس وتحط من قيمة الحِرفيّ، فهل من الممكن وجود اختراع بدون صناعات يدوية أو فلسفة بدون فكر متوحش؟ نظريات مهاجرة...تعبير موحي ولكنه يبقى غامضا.

سمّى إدوارد سعيد الكونيّة المتفردة «صمتا» لأنّها حتى تؤكد على وجودها تحتاج إلى إخراس هؤلاء الذين يعودون بالطبيعة وليس بالصدفة إلى خاصية لا يمكنهم التخلص منها أياً كانوا ومهما فعلوا. وهكذا يلاحظ سعيد في كتابه [الثقافة

[1] إدوارد سعيد وهو يستشهد بـ Theodor Adorno, *Réflexions sur l'exil*, Actes Sud, 2008, p. 703.

والامبريالية][2] أنّ «شمولية أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية الحديثة تستدعي الإسكات الطوعي أو غير الطوعي للعالم غير الأوروبي. فبإمكاننا أن نستوعبه ونستعبده ونحكمه ونمارس العنف عليه ولكننا نادرا جدّا ما نسمعهم يقولون : يجب الاستماع إلى الشعوب المستعمَرة ومعرفة ما يفكرون به». في هذا النص الذي يعود إلى عام 1992 يشير المفكر إلى غياب إرادة المعرفة وإرادة الكلام فقط. فبإمكاننا أن نُسكت الآخرين لأننا ببساطة نتكلم. لا يجب أن يغيب عن أذهاننا أنّ هناك مشاريع مشتركة جمعت الأدب المقارن والأنثروبولوجيا من جهة والإمبريالية من جهة ثانية عن طريق تغييب افتراضي للمخاطَبين. يحبذ الأوربيون وسكان أمريكا الشمالية في حقيقة الأمر أن تكون لهم الكلمة الأخيرة. الكلمة الأخيرة في واقع الحال هي الوسيلة التي يحاولون عن طريقها ضبط نظام العالم وشلّ حركة المواضيع.

بالنسبة إلى الكاتب، فعلى العكس تماما يجب « إخراج الأشكال الثقافية الغربية من أبراجها العاجية حيث حافظنا عليها وعلينا إعادة دمجها في العالم المتغير الذي تحدثه الامبريالية[3]». إنّ هذا العالم المتحرك هو الذي يزعج ويرعب لأنّه لا وجود لموقع إلاّ لكونه ثابتا كما أنّه لا وجود لمكان إلاّ لكونه متخذا. تحرّك الآخرون يرعب من يريد المحافظة على موقعه ومكانه. لهذا كانت الحركة دائما خطرا سياسيا وشكلا من أشكال الذكاء الفلسفي في آن واحد. فهذه الحركة هي التي أظهرت سقراط وهو يحدّث (وليس وهو يناقش) مسلّحا بجهله للأشياء عابرا الشوارع والأزقة وواقفا أحيانا على التقاطعات وتخوم المدينة المثقفة. إذن، تحرير المعرفة من النظرة الاستعمارية ليست من شأن المختصين فقط. وقد أشار إدوراد سعيد في ردّه على سؤال طُرح عليه أيضا عام 1992 بخصوص «المثقف الأوربي»، إلى السلطة وكذلك إلى الاغتراب الذي يتخلل مصطلحات المختصين[4].

يقول سعيد:[5]«أعتقد أنّه يوجد هناك خوف (مبرّر) من عدم استطاعة علماء الأنثروبولوجيا اليوم مسح مجال ما بعد الاستعمار بنفس السهولة التي كانت لديهم من قبل». عندما نجعل الأنثروبولوجيا ممرا لتحرير المعرفة من النظرة الاستعمارية نُذهَل أمام الجمود الغريب أو العلم الذي قد يتطور ضمنها، مع أنّنا ندين بأجمل تكريم على الإطلاق للأعمال اليدوية لعالِم أجناس. ترك "كلود ليفي ستروس" الفلسفة عندما ذهب إلى البرازيل. في اللغة الفرنسية وكما يذكرنا مهاجرنا الإلهي بكلّ حكمة، « ينطبق العمل اليدوي على لعبة الكرة والبلياردو وعلى الصيد وركوب الخيل ولكن دائما لاستحضار حركة عَرضيّة: حركة الكرة التي تنط والكلب الشارد والحصان الذي يبتعد عن الخط المرسوم له حتى يتفادى عقبة ما[6]». نفهم من هذه الملاحظات اللغويّة أنّه لا يوجد ترحال دون تحوّل أو حتى نستعمل مصطلحا معياريا دون انحناءات.

بإمكاننا القول إنّ المهاجرين يملكون «علم الملموس». فهم يحترفون بما يتناسب مع ما هم عليه بمعنى ما يتماشى مع ما هم عليه ومع منطلقهم ومقصدهم. الترحال هو عبارة عن مسارات معقّدة أكثر منها متوازية. عندما لا نركّز على الأماكن، مكان الذهاب ومكان الوصول، نتساءل من أين مرّ المهاجرون ونتساءل عن الفضاءات التي يقطعونها. وأخيرا نسأل كلّ هذه الحركات العرضيّة التي تشكّل الأسطورة والهوية والعمل اليدوي وعلم الملموس. الترحال هو الشرود وإزالة العوائق والقفز. الترحال هو الدخول في الحركة ليس فقط تلك التي تُبعدنا عن مكان حتى تُقرّبنا من آخر وإنّما تلك

---

[2] Edward Said, *Culture et impérialisme*, «Territoires superposés, histoires enchevêtrées», Fayard, 2000, p. 96 et suivantes.

[3] المرجع نفسه، ص97

[4] Edward Said, *Dans L'Ombre de l'Occident*, «L'Europe et ses autres : une perspective arabe», Blackjack, 2011, p. 57-58.

[5] Edward Said, *Réflexions sur l'exil* (2000), «Représenter le colonisé: les interlocuteurs de l'anthropologie», Actes Sud, 2008, p. 389.

[6] Claude Lévi-Strauss, *La Pensée sauvage*, Plon, 1962, p. 26.

التي تحرّك أشباح الماضي في الرأس وفي الجسد، في الرمز وفي الخيال. من يُفكر هو ذلك الذي قُطع عنده هذا الرابط وليس من وُلد وعاش ومات في نفس البيئة المألوفة لديه.

برأيي، لا يوجد ترحال من دون العمل اليدوي بما معناه أنّه لا يوجد ترحال دون أسطورة. ولا يوجد كذلك ترحال دون «فن» ودون «فكر متوحش» وبالتالي يبدو"ليفي ستروس" حِرفيّا يحسب نفسه مهندسا. يقوم وريث التاريخ الطبيعي بتقسيم وتصنيف الروابط الاجتماعية بدءاً من «بنى القرابة الأساسية». أقول هذا بسرعة للتأكيد على الفرق بين أدوات تحليله وملاحظاته. ولهذا أعتقد أنّ المنعطفات التي يسلكها عن طريق العمل اليدوي والفن وخاصة عن طريق قبّة لوحة كلوي المشهورة، طويلة جدّا. ومن الملاحظ في هذا الصدد أنّ "ليفي ستروس" يشير إلى أنّ في الفن وفي النموذج المصّغر « معرفة كل الشيء تسبق معرفة التفاصيل[7]» وبصيغة أخرى التركيب يسبق التحليل مع أنّ الأول نتيجة الثاني. عندما نقارن بين"ليفي ستروس" وسعيد الآتيين من أفقين مختلفين واللذين لا يحملان نفس المشاريع ولا نفس الأهداف فإنّنا نفهم التمزق بمعناه الحقيقي والقوي الذي يميّز عملية التفكير بين الثقافات وليس فقط ضمن ثقافة أو أخرى.

الفكر المُحرّر أو الفكر المتحرّر من النظرة الاستعمارية كما يقول البعض مثل "والتر مينيولو" هو فكر أُخرج من حدود الإقليم. ما بين العالم أو ما بين العوالم هو الفضاء الذي تتحرك فيه الأفكار المتحررة من الاستعمار وهي منفكة من قيودها أي من أماكنها التي يُقال عنها حقيقية. لا تملك الأفكار جذوراً ولهذا استطعنا أن نتخيل سماء من الأفكار. لكنّ هذه الأفكار تتجسد في موضوعات كالأظافر المغروسة في الرجل. ولأجل ذلك فإنّ النص الذي يخصّصه سعيد لما بين العالم إنّما هو سيرة ذاتية لـ "كونراد" وسيرة ذاتية لنفسه[8]. ما بين العالم أي *In Between*.

كلّ الإلتواءات اللّغوية مسموحة لتسمية أولئك الذين يملكون عناصر عرقية وثقافية متعارضة. وبكلمات أخرى مهما كلّف الأمر يُنسب التنقل والترحال اللذان هما عنصرا التغيّر والتحوّل إلى المألوف والمعروف والمسيطر عليه. وهذا ينطبق على الطرفين ولكن بطريقة مختلفة. من طرف المهاجرين، الإغراء كبير لتقسيم الأنا إلى أجزاء متعددة. أمّا من طرف السكّان الأصليين؛ فرغبتهم في معرفة من هم هؤلاء الذين جاؤوا من الخارج أو من أي مكان آخر حاسمة. في الواقع يُحدِث المهاجرون شرخا في المجتمع فهم يكسرون بحضورهم البديهيات المتعارف عليها التي تبني الحسّ المشترك وتُعزز التحالفات. وجودهم يربك الترتيب السائد الذي بفضله نعتقد بنظام العالم. وعموما يبالغ في عددهم وأهميتهم.

المهاجرون هم مفسدو التوازن الاجتماعي ومانعو الدوران داخل حلقة مفرغة والمزعجون الذين يُنسبون دائما إلى الشرخ. عِوض أن يضاف هذا الشرخ أو يتضاعف فإنّه يُطْرح ويُقْسم. بهذا تكون الوحدة قد فُقدت وفرد التراجع جناحه إلى الأبد. المهاجرون ليسوا تماما في المُدركات ولا تماما في المفاهيم. بتشكيل ترحالهم يدويا، يعملون لا محالة بطريقة متعارضة وشاذة. يُشكّكون كلّ من تبدو لهم حياتهم لأوّل وهلة رائعة خالية من أي حوادث، أي عبارة عن رحلة بحرية سعيدة تُسلّي الفكر وتذهل النظر. المهاجر مغمور في الثقافات بينما ابن البلد يتعامل مع عالم واحد أو بالأحرى كون أوحد.

كان إخضاع العلم للسياسة سببا في جهلنا العميق لما يقدمه المهاجرون لنا من جانب كوني، هم الذين يُنسبون طوعا أو كراهية إلى خاصية قد يكونوا من مفتقديها أصلا. تُظهر العلاقة بالمكان والزمن وبالبلد وبالتاريخ أنّ المكان والبلد من جهة والزمن والتاريخ من جهة أخرى تتأثر بالتنقل وعدم اليقين. ينتج تحرير البيوت المسكونة وغرف مدمني الأفيون من التصور الاستعماري صوراً متأرجحة وتصورات عائمة وأفكارا تائهة. في الماضي وصفت مجلة *Liverpool Weekly*

---

[7] المرجع ذاته، ص 3-4.

[8] *Réflexions sur l'exil*, « Dans l'entre-mondes» p. 687.

Courier صينيّي ليفربول كالتالي :« خيالات غريبة تنبثق عند الشفق وتتنقل وهي تجرّ أرجلها بصلابة شرقية بحتة وتتمعن المحيط الغريب بعيونها الحيادية المشدودة في وجوه زعفرانية كالأقنعة. أصبح الشارع ملكا لمدينة ليفربول الصينية[9]». الغريب أنّ الكلام عن المهاجرين كان وبصفة متكررة يركّز على حالتهم الجامدة (أو حتى تقليديتهم) لا على حركتهم. اعْتُبروا في ليفربول وذلك لفترة طويلة مدخني أفيون أي جامدين ومُنَوّمين.

وهذا من شأنه توضيح الملاحظة التي يشير إليها "غريغوري ليي" في نص آخر من نصوصه[10] : «ينتمي عدم اهتمام علم الصينيات البريطاني بما هو حديث وكذلك عدم وجود دراسات عن الاحتلال البريطاني لهونغ كونغ وكذلك عدم تناول الممارسات الثقافية لصينيي بريطانيا، إلى عملية إخفاء الصين من طرف الغرب الاستعماري، تلك الصين التي أنتجها نفس هذا الغرب خلال القرن التاسع عشر». نجد معاداة الأجانب حاضرة في التصور الذي وصل إليه الإنكليز عن الصينيين الساكنين على أراضيهم (معاداة الأجانب ليس لها علاقة بالمكان ولكن بالإقليم): الصينيون مدمنون على الأفيون ويعيشون في أوهامهم وهلوستهم. ربما لا ينطبق هذا التصور على صينيي بريطانيا فقط وإنّما على كلّ المهاجرين. إذن تكون المساحة الحقيقية للوجود مملوءة بالخيالات والأشباح فهي أولاّ فراغ يعود إلى نوع من انعدام التوازن يصيب كلّ الذين يتغربون.

(ب)

أبدى إدوارد سعيد إعجابه بـ "فوكو"[11]. ولكن في حوار أُجري معه عام 1985[12] أعرب عن تفضيل كاتب آخر وذلك عندما طُرح عليه السؤال عن أهم كتابين في سنوات الستينات «تاريخ الجنون» لـ"ميشال فوكو" و«معذبو الأرض» لـ"فرانز فانون"، فقد سلّم سعيد بأنّ الثاني أكثر أهمية برأيه لأنّه « يتطرق إلى النضالات السياسية الحالية للثورة الجزائرية ». إنّ «النضال الجماعي» الذي يتبناه "فانون" يتفوّق في نظره على العمل الوحيد لباحث يقوم برسالة دكتوراه. وهذا يعني أنّ النظرية تهمه وذلك حسب مدى تغلغلها في التطبيق. وهذا موقف لا يتبناه الجميع. في الواقع تجاهل كبار المفكرين الفرنسيين في سنوات الستينات في تحليلاتهم النظرية النضالات المناهضة للاستعمار والمعادية للاستعمار باستثناء "جون فرانسوا ليوتار".

كان "ليوتار" أستاذ فلسفة شاب، درس في ثانوية قسنطينة من سنة 1950 إلى سنة 1952. وكان التحوّل الجزائري بالنسبة إليه مهمّا مثلما كان الحال مع "بيار بورديو". تمّ جمع نصوص لـ"يوتار" عن الجزائر في كتاب يحمل عنوان «حرب الجزائريين[13]». لم يُظهر "جاك دريدا" مثلا اهتماما خاصا من الناحية النظرية بالقضايا الاستعمارية مع أنّه ولد في الجزائر وقضى طفولته في عاصمتها وربّما لانّه عاش هناك تحديدا. يعود سعيد الذي ينتمي إلى الجيل نفسه إلى الفرق الجوهري بين "فانون" و"فوكو" مؤكدا على أنّ حسّ الالتزام الفعليّ غائب في أعمال "فوكو" الأولى ولكنه حاضر عند "فانون".

---

[9] Cf. Gregory Lee, «L'opium et le Chinois dans le discours colonialiste», http://gregorylee.pagespersoorange.fr/lee_opium.htm

[10] Gregory Lee, «Textes, oublis, histoires», revue *Vacarme* n° 11, printemps 2000,

[11] Edward Said, Michel Foucault» in *Réflexions sur l'exil*, p. 259 sq.

[12] Edward Said, *Dans l'Ombre de l'Occident*, Blackjack, 2011, p. 9.

[13] Jean-François Lyotard, *La Guerre des Algériens* (1956-1963), Galilée, 1989.

إنّ الفرق بالنسبة إليه حاسم، فتلقي "فوكو" لـ(دريدا وليوتار ودولوز) ما وراء الأطلسي ليس له نفس الوقع مثل الترحال لدى فانون. بالنسبة إلى سعيد، يُمثل "فانون"«نهاية العالم[14]». ما كان يريده سعيد في المجال المختلط بين النظرية والتطبيق هو «اتصال بين "فانون" و"أدورنو"»[15]. اهتمام سعيد بما يحدث على الصعيد العملي مصيري، فهذا يسمح له استيعاب آثار التنقل والترحال التي تحملها القراءات في طيّاتها. وفي حوار آخر[16]، أشار إدوارد سعيد إلى أنّ رواية "كونراد" الشهيرة «قلب الظلام» تُصبح مختلفة جدّا عندما يقرأها أوربيون وعندما يكتشفها الأفريقيون[17]. هي في الواقع كمن يقرأ خفية شيئا بين يدي الآخر، شيئا لا يجدر به قراءته. هو أيضا اكتشاف نظرة يكون الضوء مسلطا فيها علينا.

يكمن الفرق النموذجي بين "فوكو" و"فانون" في أنّ الأوّل في موقع القارئ الأوروبي لـ "كونراد" والثاني في موقع القارئ الإفريقي. هناك عالم بأكمله يحول بينهما. كما أنه نقد وجهّه "غاياتيري شكرفورتي سبيفاك"[18] لـ"فوكو" و"دولوز"، فعِوض أن يتصورا نفسيهما مواضيع محدّدة فإنّهما يعتبران نفسيهما مواضيع شفّافة. وفي المقابل يمكننا القول أن "فانون" في هذا الصدد ذات كثيفة يجعل من هذه الكثافة أحد مواضيعه النظرية مثلما فعل في كتابه «جلد أسود وأقنعة بيضاء». لهذا السبب انتقد سعيد، في آخر حوار من الحوارات التي سبق أن أشرت إليها «أوروبا وآخريها : من منظور عربي»، انتقد كتاب «المثقف الأوروبي[19]». يُعتبر "ألبير كامو" من أهم الشخصيات التي تمثل هذا المثقف الأوروبي لأنّه تحديدا لم يفهم ظهور وجهة نظر عن العالم غير أوروبية عندما رفض الاعتراف بدولة جزائرية مسلمة. ففي نص بعنوان «الهوية والسلطة والحرية: العاهل والمسافر[20]»، جعل سعيد من "كامو" عاهلا ومن "فانون" مسافرا فالأوّل يُقصي والثاني يُدمج[21].

نقول دونما حاجة للتفكير أن مَن ينكر الكروليّة والخلط والاختلاط والتهجين فإنّه يقف في صف العاهل لا في صف المسافر عمليا. يقول سعيد[22]«وككثيرين أنا لا أنتمي إلى عالم واحد، أنا عربي فلسطيني وأنا كذلك أمريكي وهذا ما يمنحني أفقين سأقول عنهما غريبين حتى لا أقول شيئا آخر قد يكون مضحكا». من الملاحظ هنا أنّ سعيد بدل أن يفكر عن طريق الهوية فهو يفكر عن طريق العالم. وهذا بحد ذاته تحرك ملحوظ بل هو سفر بأكمله. يقدم لنا "سْتِفَنْسُونْ" في خرافته «المواطن والمسافر» نسخة مهمة عن السفر لأنّه يقوم بخلطها مع النقد. «قال المواطن: انظروا حولكم، إليكم أكبر سوق في العالم. آه، كلا، قال المسافر. فقال المواطن: ربّما ليس الأكبر ولكن الأفضل. أنا متأكد من هذا. قال المسافر: أنت مخطئ، إذ يمكن أن أذكر لك... سندفن الغريب عند حلول الظلام». يكون العاهل مثل مواطن"سْتِفَنْسُونْ" تماما الذي يعتبر أنّه يملك العالم. أمّا المسافر فهو لا يملك أي عالم. فللأوّل السلطة وللآخر الحريّة.

نفهم هنا أنّ ما يسبب الإحراج لأوروبا مع مثل هذا النوع من السفر هو تلاشي سلطتها وتهاوي سيادتها النظريتين. في كتاب «تمثيل المستعمَر: مُحَاورو الأنثروبولوجيا[23]»، عاد سعيد إلى فانون حتى يضع في المقام الأوّل فكرة

---

[14] *Dans l'ombre de l'Occident*، *op. cit.*، p. 10-11.

[15] *Dans l'ombre de l'Occident*، *op. cit.*،p. 29.

[16] Entre deux cultures» (1996)، *Dans l'ombre de l'Occident*، p. 53.

[17] المرجع ذاته، ص538

[18] Gayatri Chakravorty Spivak، *Les subalternes peuvent-elles parler?* Amsterdam.

[19] «L'Europe et ses autres: une perspective arabe»، *Dans l'ombre de l'Occident*، *op. cit.*، p. 57.

[20] Edward Said، *Réflexions sur l'exil*، *op. cit.*، p. 497 sq.

[21] المرجع ذاته، ص508

[22] المرجع ذاته، ص509-510

[23] المرجع ذاته، ص385 وما يليها

أنّ السفر حامل للربط. عندما يقوم "كامو" بالعمل عن طريق الفصل، يقوم فانون بإحداث روابط معقدة. تملك العمليات الفكرية مهما كانت غير ملموسة حدودا تخيلية ورمزية تُخلّف في الفكر انعكاسات حقيقية لزوايا ميتة وآفاق منحرفة. تدمر الحركة الفكرية بهذا الانطولوجيا لصالح الأنثروبولوجيا مفسدة بذلك مفهوم الهوية.

تؤدي بنا إذن كلّ خطوة إلى مفهومين هما : النظرية والتطبيق، الهوية والعالم، السيادة والسفر، السلطة والحريّة. حتى نسافر علينا أن نفهم أنّ النظرية يجب أن تستند إلى التطبيق وأنّ عليها أن تُفضّل الحريّة على السلطة وعليها أيضا ألاّ تعتمد على الهوية وإنّما على ما بين العوالم. يخلق الترحال حيز ما بين العوالم. «في ما بين العوالم[24]» ليس كما يمكن أن نتوقع نصا نظريا وإنّما هو سرد لسيرة ذاتية يبدأ فيه سعيد رؤية نفسه في "كونراد". هناك فقرة تشير ولكن بطريقة مبطّنة إلى ما يشتمل عليه السفر: غياب الحماية أو بصيغة أخرى أن نكون عُرضة لكلّ شيء ولأي شيء كالمرض وحتى الموت.

يعكس غياب الحماية أن نكون عُرضة لشيء ما وكذلك فكرة التخلي. يربطها سعيد بالمقاومة والتراجع والوحدة والمحافظة والعصامية. هو يربطها في الحقيقة بالغربة. إنّ السفر المقصود ليس ذهاب وإيّاب رجل الأعمال ولا هو سفر السائحون المنظم الذين يزورون من خلاله أجمل الأماكن التي يمرّون بها ولا هو تنقل أولئك الجامعيون الذين يحضرون مؤتمرات في كلّ أنحاء المعمورة. يتعلق الأمر بالغربة ليس فقط جغرافيا وإنّما بالأخص مؤسساتيا. لهذا يربط سعيد السنة السبتية بالنزاع الداخلي ولهذا أيضا يزاوج بين السفر بين العوالم والعصامية. « يقول: كنت دائما مشدودا إلى العصاميين العنيدين وإلى مختلف المفكرين الذين لا نجد الكثير من أمثالهم». يضيف وذلك بسبب «طيش وجهة نظرهم الخاصة[25]» جزئيا. العصاميّ هو الذي يتعلّم دون معلّم، بمعنى آخر هو ذلك اللامبالي بالسلطة الذي يتعلّم بنفسه، «هو الذي يتعلّم بنفسه دون أن يكون لديه معلّم»، «ذلك الذي يتعلّم وحده بدون معلّم». العصاميّ هو بمعنى أو بآخر يتيم ثقافيا ولهذا تجربته الخاصة مهمة في بناء معلوماته ولهذا السبب أيضا يبقى تقليده غير ممكن.

(ت)

لا يمكن إضفاء الطابع المؤسساتي على النظرية المهاجرة فهي كذلك معمولة من شخصيات قلقة مثل "فانون" أو سعيد التي لها ماضٍ صعب وغير قابل لأن نستوعبه. وهكذا وعلى غرار "فانون" يكتب سعيد ويفكّر بطريقة طِباقية. هذا المصطلح [الفرنسي] الموسيقى الأصل [contrapuntique] أساسي عند سعيد. تنحدر كلمة contrepoint من المصطلح اللاتيني *punctus contra punctum a morticulum* الذي يعني حرفيا نقطة ضد نقطة أي نوتة ضد نوتة. يقوم الطِباق على تراكب أسطر موسيقية وهو أساس تعدّد الأصوات، وإليكم تعريف له: «في ميدان الموسيقى، نقصد بتعدّد الأصوات اجتماع العديد من الأصوات المستقلة عن بعضها البعض مع أنّها مرتبطة ببعضها البعض عن طريق قانون الانسجام، وبعد ذلك أُطلق هذا المصطلح على قدرة في اللّعب على عدة نوتات في الوقت نفسه، كما أن هناك آلات متعددّة الأصوات». فهكذا بعد "فانون"، يبدو سعيد بعيدا كلّ البعد عن أحادية الأصوات التي تميّز "ميشال فوكو". كما أنه يظهر أكثر حساسيةً تجاه الحوارية منه تجاه الخطاب.

[24] المرجع ذاته، ص687 وما يليها

[25] المرجع ذاته، ص695-696

للمصطلح [الفرنسي] polyphonie (تعدّد الأصوات) أيضا معنى أدبي. هذا المصطلح مستوحى من الكلمة اليونانية *poluphônia* التي تعني حسب أصل الكلمة «تعدّد الأصوات أو النغم». استُعمل هذا المصطلح أولا في مجال الموسيقى الصوتية وأدخله "ميخائيل باختين" فيما بعد في مجال الأدب ويُقصد به « طريقة كتابة تعتمد على تراكب سطرين أو أكثر وأصوات أو أجزاء مستقلة موسيقيا حسب المعايير الطِباقية». هنالك تراكب أصوات ومصادر بيانية في المقطع نفسه. بالنسبة إلى "باختين"، تعدّد الأصوات الحواري هو خاصية الرواية الحديثة خصوصا عند دوستويفسكي، إذ يقول: «يطرح مفهوم تعدّد الأصوات الذي يُستعمل كثيرا بسبب خاصيته الإيحائية مشكلات فيما يخصّ تعريفه ومصطلحاته كما يطرح في الوقت نفسه مشكلات تحديد مجالاته، إذ يتغيّر تعريف تعدّد الأصوات حسب الميدان الذي يُستعمل فيه ومجال تطبيقه. يمكننا كذلك أن نقول وبدون تلاعب بالكلمات أنَ مصطلح تعدّد الأصوات حواري بجدارة... فلا يمكن التطرق إليه إلاّ بعلاقاته مع شيء آخر وضمنه: تعدّد الأصوات والحوارية، تعدّد الأصوات والبيان، تعدّد الأصوات والتناص، تعدّد الأصوات والألوان الأدبية[26]». وبهذا يتفادى تعدّد الأصوات الخيارات والاستثناءات.

لا يقترح سعيد تعريفاً بل على العكس من ذلك يلف موضوعه ويحدّده بطريقة متعدّدة ومجازية. هذه ميزة أسلوب تفكيره. يمكننا استيعاب مفهوم «النظريات المهاجرة» بكلّ معناها الثريّ والصحيح عن طريق مجموعة خيوط. يُعتبر الخلط بين فكرة "النظريات المهاجرة" وبين تلقي "سارتر" و"فوكو" أو "دولوز" خطأ في المعنى. السفر هو نزوح الموضوعات ونفيها لنفسها بنفسها واختلاطها مع بعضها البعض وتحوّلها إلى موضوعات تسكن ما بين العوالم وهي ليست أفراد يعتبرون السفر وقت فراغ لا ضرورةً ويعتبرونه متعة لا معاناة، وهو تأكيد الذات وليس نفيها. إنّ السفر في هذه الحالة مرتبط ارتباطا وثيقا بالسلبية والانفتاح (وبهذا يزداد فهمنا لوجود اقتباسات عن "أدورنو" في كتابات سعيد). فعندما نتوقع من سعيد تعريفا يمنحنا استعارة وعندما ننتظر منه سردا يقدم لنا تحليلا. كتابات سعيد مثلها مثل كتابات "فانون" مركّبة تتهرب من الأوامر ولا تسعى إلى إرضاء التوقعات.

يجب أيضا أن نتذكر شيئا هو أنّ سعيد يربط دائما المقولة بالبيان. الجمع بين هذين الأخيرين يجعلنا نتفادى الوقوع في فخ العرقيّة وحب الذات الأوروبية. وبالتالي فالموضوع إن لم يكن موجودا في المقولة يكون حاضرا في البيان. هذا الجمع في الأساس هو الذي يخلق الطِباق وتعدّد الأصوات. ما يميّز مثقفي العالم الأوّل كما قد يقول دارسي الفكر الثانوي هو ذلك الانفصال الذي يُحدُثونه بين البيان والمقولة، بين ما هم عليه (ومكانهم) وبين ما يقولون. ومن هنا يمكننا تحديد ماهية خطاب المؤسسة، فهو مقولة مفصولة تماما عن بيانها. هو مقولة تنقصها الانعكاسية. لذا تصبح فكرة العصامي الذي لا يُقلّد أوضح، إذ يمكننا أن نعيد تناول مقولات وليس بيانات وبالتالي تصبح الكتابة أهم من مجرد سرد.

يُفسَّر قُرب سعيد من "فانون" بموقف الاثنين من الجغرافيا الاستعمارية: الاثنان طُردا من أرضيهما من طرف المستعمِرين حتى ولو كان ذلك بطريقة مختلفة. أمّا قُرب سعيد من "أدورنو" فيُفسّر بالغربة التي عرفها كلاهما لأسباب سياسية. يشترك "فانون" و"أدورنو" مع سعيد في تجربة ما نسميه غير القابل للسكن. يتحدث سعيد عن السبب في هذا وذلك في حوار أُجري معه: «لا يملك الكاتب في نهاية المطاف حتى حق السكن داخل الكتابة» (أدورنو).«نصل في أحسن الأحوال إلى رضا مؤقت سرعان ما يعتريه الشك فنشعر بحاجة ملّحة إلى أن نعيد ما كتبنا وأيضا أن نعيد بلورة أفكارنا وهذا ما يجعل النص غير قابل للسكن. لكن هذا أفضل من سكرة الرضا عن النفس وحتمية الموت[27]». البداوة أمر لا مفر منه

---

[26] Claire Stolz «La notion de polyphonie». http://www.fabula.org/atelier.php?La_notion_de_polyphonie

[27] *Réflexions sur l'exil*, *op. cit.*, p. 702.

لأنّ كلّ سكن نصّي وكلّ مأوى يُعتبر مؤقتا لا غير. يقول سعيد أنّه تعلّم من "أدورنو" التالي: «قضية خاسرة أفضل من قضية رابحة والوعي بالمؤقت والاحتمالي أفضل من الاستقرار الامتلاكي لملكية ثابتة كمنزل مستأجر مثلا[28]». قد يحمل الاستئجار مزايا أكثر من الامتلاك.

في سنة 1983، نشر سعيد *Travelling Theories* في كتاب بعنوان « *The world, the text and the critic*»، وبدأه بملاحظة أنّ الأفكار والنظريات تسافر من شخص إلى آخر ومن حالة إلى أخرى ومن زمن إلى آخر. تخلق هذه الحالة تأثيرات لاوعيية تشكّل طريقة تفكيرنا. الأهم من هذا هو سفر النظريات من ثقافة إلى أخرى الذي يفتح أبوابا جديدة. يشير سعيد إلى هذا النص بعد ذلك بعشر سنوات في كتابه المشهور «العودة» الذي يتحدث عن النظرية المهاجرة. يستكشف سعيد بطريقة أخرى العلاقة بين النظرية والتطبيق. الشخصية المحورية في هذا النص ليس "قانون" ولا "أدورنو" وإنّما "لوكاش". ولكن ليس "لوكاش" كلّه وإنّما كتاب «تاريخ ووعي الطبقة» وأخيرا ليس هذا الكتاب كلّه وإنّما الفصل الرابع المخصّص للتشييء. في هذا النّص، يعيد سعيد قراءة نظرية "ماركس" المشهورة حول تِيمية السلعة عندما تصبح طريقة العرض والطلب كونية. في الإنتاج الرأسمالي، تِيمية السلعة هي عبارة عن ظاهرة عن طريقها تُستخدم السلعة دُعامةً لعلاقات الإنتاج بين النّاس وتمنحنا بالتالي الإحساس بأنّ العلاقات الاجتماعية للإنتاج ما هي إلاّ علاقات بين أشياء. لا تصبح الأشياء وخاصة القيّمة منها مُمثِلة للبشر وإنّما البشر هم من سيمثلون الأشياء ويتحوّلون بذلك إلى ممثلي بضائع. تصبح قيمة البشر تجارية فلا يعود لهم قيمة وإنّما ثمن. تنتمي هذه الإحالة إلى الفلسفة النقدية.

لم يلجأ سعيد إلى هذه النظرية كي يحلّلها ولكن كي يشير إلى أنّ القوة الأولى لنظرية نقدية تضعف بسبب إعادة صياغاتها مرات عديدة ممّا يبعدها بالضرورة عن التطبيق. يتناول سعيد بالتالي مفهوم النظرية المهاجرة لهدف نقدي وليس لهدف معياري. إليكم ما كتب سنة 1994: «تكمن قوة تجربة إنسانية ما، في المرة الأولى التي يتم فيها تسجيلها ومن ثم صياغتها في مصطلحات نظرية، تكمن في أنّها ترتبط ارتباطا مباشرا وعضويا بظروف تاريخية حقيقية تكون قد سببتها[29]». فقد وقع اهتمام سعيد على جديد، وهو أمر صيغ لأوّل مرة. إذن مصير نظرية ما قاتم منطقيا، فقوتها تضمحل كي تتحول إلى بديل جامعي. تتشيأ النظرية وتصبح سلعة حتى تتحوّل إلى شيء معبود وهذا هو الوضع الحالي للعديد من دراسات ما بعد الاستعمار (*postcolonial studies*).

استعاد "لوسيان غولدمان" في فرنسا و"ريمون وليامز" في إنجلترا أفكار "لوكاش" فيما بعد لكنها فقدت لونها وحدّتها حسب سعيد. وسرعان ما أصبحت هذه الأفكار جزءا من قانون عقائدي. يكشف الرجوع إلى حجة سعيد عن فكرة عدم ارتباط النظرية بالعوامل العملية الذي يؤدي إلى نوع من التخفيف رغم أنّ العمل الفكري قد يكون مميّزا. ففي يومنا هذا نتحدث عن نسخة خفيفة (*light*). قلة الاهتمام بالتطبيق ما هو إلاّ التخلي عن الاستثمار العاطفي. لا يهم في الواقع أن نقول شيئا بدلا من آخر وأن نعبّر أو لا عما إذا كان ما نرمي إليه هو أكاديمي حصرا. ومع ذلك هناك دراسات جامعية كما في الماضي تنقل نصوصا عن نصوص أخرى دون أن تُرجع هذه النصوص إلى حالات عملية. الحلّ الذي يقترحه سعيد غريب فعلا، إذ يقترح وبكلّ بساطة انتهاك النظرية التي نحن بصدد إعادة صياغتها فهذه هي الطريقة الوحيدة للهروب من التكرار وبالتالي تفادي الموت بسبب المضاربة.

---

[28] المرجع ذاته، ص701

[29] *Réflexions sur l'exil*, *op. cit.*, p. 554.

(ث)

يجب فهم الغربة عند سعيد بطريقتين. بنظره هناك شرط حقيقي وآخر مجازي، فهو يقول: «حتى المثقفين الذين هم أفراد مستقلين في مجتمع يمكن تقسيمهم إلى مجموعتين، أولئك «الذين هم» وهؤلاء «الذين ليسوا»، فمن من جهة هناك الذين ينتمون إلى المجتمع كما هو والذين يعيشون بانسجام دون أي شعور بالعداء اتجاهه أو بالخلاف معه[...] ومن جهة أخرى هنالك الذين يجاهرون بـ"لا"، أفراد معارضون لمجتمعاتهم، غرباء ومغتربون عندما يتعلق الأمر بالامتيازات والسلطة والشرف[30]».

لهذا يقترح سعيد مغادرة الأرض ورفع الرجل عنها. نميّز عادة في تمثيلاتنا بين الأرض والماء كاليقين من عدم اليقين والأمان من الخطر والتجربة من المضاربة. أن تكون أرض-أرض هو أن تكون مبتذلا ولا تهتم إلاّ بالأمور المادية أو العملية. أن تُبقي رجليك على الأرض هو أن تكون واقعيا وأن يكون لديك حس عملي. في المقابل الطفو هو التردد والشك وعدم اتخاذ القرار وفقدان العلامات المرجعية. لا يخبرنا القاموس أنّ أرض-أرض هو مصطلح بحري معناه الملاحة الساحلية.

يمثل الحيز البحري، سواء كان بحراً أم محيطاً، مجالات ما بين العوالم التي لا تتطابق مع مكان الانطلاق ولا مع مكان الوصول. نحن في مكان ما في الماء وهذا ما يستدعي حساب موقعنا (خطوط الطول وخطوط العرض) واستعمال بوصلة عندما نريد معرفة مكاننا. الذين يبحرون يعرفون مدى المتاهة المكانية والزمنية التي يعيشها الملاّح وهذا ما يُسعده وأيضا يخيفه مثل *"مُوبِي ديكْ"* ويمكن أن يرعبه فمن يسكن مجالات ما بين العوالم هذه؟

عندما اخترع "بول جيلروي" مفهوم «المحيط الأطلسي الأسود» كان اهتمامه يتعلق بخاصية مكان لا يمكن أن نختزله لا في أوروبا ولا في أمريكا ولا حتى في إفريقيا فلقد استوحى أفكاره من كتاب الاستشراق لسعيد. في حوار أجرته معه مجلة *Mouvements*[31] صرح "جيلروي" قائلا: «كنت أوّد كتابة شيء يشبه الاستشراق فقد كنت أرغب في اقتراح نهج يمكن استخدامه في مجالات أخرى. إنّ مفهوم الثقافة في لغاتنا وهذا ينطبق بشكل خاص على الفرنسي والانجليزي، مرتبط كثيرا بالأرض والزراعة والتراب. إنّنا لا نعتبر المحيط والسفن والتجارة أماكن للثقافة. تبدأ الثقافة في البرّ المغلق وكلّ ما عدا ذلك هو مجرد فجوة وأنا لست متفقا مع هذا».

السفينة هي رمز ما بين العوالم ومجالها، هي شعار« ممر الوسط». يؤكد "جيلروي" بهذا على العلاقات بين عالم البحار والنشطاء المناهضين للعبودية. في مطلع القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على سبيل المثال، كان الانجليزي "جيمس وادربرن"، وهو ابن لرجل أسود وامرأة مستعبدة، والذي دعا إلى قتل أصحاب المزارع، كان يعمل في البحرية وبحكم عمله هذا كان مضطرا لمضاعفة الذهاب والإياب. وكان نظيره الأمريكي الشهير "فريدريك دوغلاس" بنّاء لسفن العبيد. فهذا الحيز هو ملتقى المتحركات.

اعتبر "ريشارد رايت" الذي هاجر إلى فرنسا وكان على قدر كبير من الدراية بـ"سارتر" و"بلانشو" و"مانوني" و"باتاي" أنّه أصيب بعدوى من هؤلاء. فقد اعتُبرت أعماله غير أصلية. ومسحت الترجمة الانجليزية لكتاب «خطاب منطقة البحر الكاريبي» الذي كتبه "ادوارد غليسان" كلّ إشارة إلى "دولوز" و"غاتاري" وكأنّ هذه الإشارات تُنقص من أصالة

---

[30] Edward Said, *Des Intellectuels et du Pouvoir* (1994), Seuil, 1996, p.69.

[31] Jim Cohen et Jade Lindgaard «De l'Atlantique noir à la mélancolie postcoloniale», *Mouvements* 3/2007 (n° 51), p. 90-101.
www.cairn.info/revue-mouvements-2007-3-page-90.htm

الكتاب. لا يحب جميع القراء النظريات المهاجرة لهذا يجب أن نحب مثل سعيد قصص البحارة وأن نعرف مجالات ما بين العوالم ويجب أن يكون لدينا خاصة حسّ المغامرة. وهذا هو الثمن الذي يجب دفعه لتحرير المعرفة من النظرة الاستعمارية.